

نظريّة الانطائي وفلسفته في الأنباض

د. سلمان قطايبه
كلية الطب - جامعة حلب

ولقد ابتكرت الامم قبل العرب أدوات موسيقية مختلفة ، الا ان الفارابي ابتكر الآلة المسماة بالعود والتي تعتبر أساسا في علم الموسيقى العربية . والعود الذي ابتكره الفارابي معروف باسم السيج ، ولقد جعل أوتاره على أوزان تفرع الشريان الابهر من القلب حتى الاصابع . وعندما أسس العرب سلمهم الموسيقي

ومشافي الامراض والعلل في الطب » و « الفية في الطب » و « بهجة الناظر » و « تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق في الادب » و « رسالة في الحمام » أو الرسالة البكرية .

ولكن اشهر كتبه واهمها كتاب « تذكرة اولي الالباب في الجامع للعجب العجائب في الطب » ، ويقع في ثلاثة مجلدات . ذكر فيه الامراض وعلاجها ، والادوية المختلفة (يحتوي على ما لا يقل عن ١٧١٢ صنفا) ، وفيه أول ذكر للفرنجي ومعالجته بالزئبق ، ونبات البن .

يعتقد الانطائي(*) أن لذائذ الدنيا أربع : المأكّل ، والسماع ، والنكاح ، والملابس . وأن افضلها الطعام ، واربداها النكاح ، وأسلمها السماع . فالطعام وان كان حاجة ماسة للجسم لكن الاكثار منه جالب للامراض ، كذلك النكاح ، اما السماع فلا ضرر منه فليكثر من شاء ما شاء منه .

(*) - داود الانطائي (٩٥٠ - ١٠٠٨ هـ / ١٥٤٣ - ١٥٩٩ م) هو داود بن عمر الانطائي ، ولد في انطاكية (وقيل في فوعة قرب ادلب ، ثم انتقل الى انطاكية) . وكان ضريرا وكسيحا ، ولكنه شفي من كساحه ولقب بالضريّر . ودرس الطب وتفوق فيه ، وسافر الى حلب ، ودمشق ، والقاهرة ، ودرس فيها . وكان بارعا في المنطق ، والفلسفة ، والفلك ، والطب . واتفق اللاتينية ، واتهم بالالحداد في اواخر حياته ، فقصده مكة للحج وتوفي فيها . ترك عدة كتب منها : « استقصاء الملل

والاوتار من حيث السلم الموسيقي معادلة تماما
لصوت الانسان .

فالعلاقة بين العود وجسم الانسان واضحة
وتامة ، ولقد استطاع اسحق الموصلي (٧٦٧ -
١٨٨٥ م) أن يتعمق في هذه العلاقة حينما أشار
الى ان الالحن تتناسب مع الفصول الاربعة
المعروفة ، فاذا كان الوقت شتاء فمن المفضل
العزف على البم المصنوع من النحاس في القانون ،
فان انتشار اللحن يؤدي الى جو يابس حار ، وهو
أنسب للطقس البارد شتاء .

وعلى هذا فقد وجد أن :

البم يعادل العنصر : الارض

والمثلث يعادل : الماء

والمثنى يعادل : الهواء

والزير يعادل : النار .

وعندئذ ، من العناصر نصل الى الاخلاط
الاربعة وهي : الدم ، والبلغم ، والسوداء
والصفراء .

والى الامزجة الاربعة : الحار ، الرطب ،
اليابس ، الجاف .

ونحن نعلم حسب النظرية البقراتية ان
توازن هذه الامزجة وتعادلها يؤديان الى حال
الصحة ، التعادل CRASIE وان اضطرابها يؤدي
الى سوء المزاج DYSCRASIE وهو حال
المرض .

معنى هذا ان لكل مزاج وطبع ألحانا مناسبة
حسب صاحب المزاج . الا أن المزاج هذا ذو علاقة
مباشرة مع البرج الذي ينتمي اليه صاحبه .

جعلوه أيضا فيزيولوجيا فاعتبروا أخشن صوت
للرجل مساويا لاغلظ وتر في العود وهو المسمى
البم .

وجعلوا رتبة الصياح مساوية لارتفاع وتر في
العود وهو المسمى الزير . وبين الاثنين وتران :
احدهما المثنى والثاني المثلث .

فالعود يحتوي على هذه الاوتار الاربعة .
ولكن من الناس من جعلهم ثمانية . والنسب بين
هذه الاوتار الاربعة هي كالتالي :

البم أغلظها ويعادل المثلث + $\frac{3}{1}$ واذا
عادلناها بطاقات الحرير المصنوع منها وجدنا أنه
مؤلف من ٦٤ طاقة حرير .

بينما المثلث يساوي المثنى + $\frac{3}{1}$ ويعادل
٤٨ طاقة حرير .

والمثنى يساوي الزير مضافاً اليه ثلث أي
٣٦ طاقة حرير .

أما الزير فيحتوي على ٢٧ طاقة حرير .

والواقع أنه عندما يسمع الانسان الايقاع
والالحن فان ذلك يؤثر في القلب ومن ثم يوجب
تغير النبض ، ولا عجب فان ترتيب أوتار العود
مأخوذ من ترتيب شرايين القلب وتفرعاته ،



« والكتاب يبرهن على ان المؤلف عالم كبير
ورجل جدي ووجداني » (لوكير) ، وهو مطبوع
عدة مرات .

وفي آخره قسم ، دخیل على الكتاب الاصيلي
فيه الكثير من السحر والشعوذة ، ادخله عليه
آخرون ، ولا علاقة للانطاكى به . وكتابه الذي
اعتمدناه في هذه الدراسة هو « النزهة المبهمه في
تشحيذ الاذهان . وتعديل الامزجة » .

(كونسيرت) يرى ان الناس يجلسون صامتين وهم يجلسون ألقاسهم ، ويركزون اقتباههم على ما يسمعون وكأنهم لا ينصتون بقلوبهم بل بعقولهم .

والواقع أن الالحن الانساني تجاه الموسيقى معقد . اذ تتداخل فيه عناصر كثيرة . ولكن الغالب في الموسيقى الاوروبية (المسماة خطأ عالمية ، وهي ليست عالمية الا لان الاوروبيين فرضوها على العالم فأسموها عالمية) ، هو العنصر العقلاني .

واذا انتقلنا الى الجو الشرقي وجدنا الامر على العكس تماما ، فالناس في افغان وهاياج ، ويتلاعب الفنان المغني بهذه العواطف . فاذا كان من النوع الجيد والقديم ذي الجمهور المعتاد لاعماله وفنه ، استطاع أن يتلاعب بعواطف الجمهور كما يريد تقريبا .

وليس الامر في رأينا عائدا الى كون العرب عاطفين ، او لانهم اقل انضباطا وانتظاما من غيرهم فقط .

بل ان الامر عائدا الى طبيعة الموسيقى العربية نفسها . لانها فيزيولوجية محضة ذات مباشرة بجسد الانسان ، لذا فهي تحرك المستمع بدءا من الفيزيولوجيا حتى النفس .

فاذا كانت الالحن تؤثر في القلب ثم في النبض . فلنر كيف يحدث ذلك .

ان الالحن مؤلفة اما :

من نقرات منفصلة يفرقها سكون تنقرات

فهكذا نجد أن الالحن التي تترنم بالشجاعة والحروب تناسب أصحاب برج المريخ .

وان الالحن العشق والغزل ولطف الشماثل :

تناسب أبراج الزهرة وعطارد .

أما الالحن الزهد والدين فهي للمشتري .

والالحن السلطنة وعلو الهمة : للشمس .

والرياض والسياحة : لزحل .

أما التغني بالالحن المأكول والنكاح : فهي

لاهل الحضيض من السليقات .

وقد يكون هذا الامر سهلا بالنسبة لصاحب

الصناعة (أي المغني أو الفنان العازف) عندما

يكون جليسه شخصا واحدا يعرفه تمام المعرفة .

اما اذا كان في مجلس فيه خلق كثيرون

، صعب عليه الامر لصعوبة جمع الالحن ابراج

متعددة . ولكن عليه هنا ، حسب براعته ، تأليف

نسب صالحة بين الالحن تناسب الجميع . فان

عجز فعليه أن يتخذ طبع رئيس الجلسة ويأخذ

بعين الاعتبار أيضا طالع الوقت .

كل هذه تخدمه في عدة امور : اما بسطقوم

أو رفع تشاجر

أو دفع هم .

أو معرفة مرض

ولكن هذه الاستطبانات اذا صح القول

لا علاقة لها ، ظاهريا ، بالسماع الذي يقصده

الناس للمتعة والترويح عن النفس .

ولكن الواقع بالنسبة للموسيقى العربية

مغاير تماما .

كل من حضر منا حفلة موسيقية غربية



الاورتار ، وسرعتها مثلاً تتناسب مع سرعة ضربات القلب TACHYCARDIE المصادفة في الحميات مثلاً .

— أو أنها نعمات متصلة كالمزامير ، وتغير نعماتها ينسجم مع تغير النبض اذ يصبح نبضاً موحياً .

والغناء مؤلف من ثلاثة عناصر :

النسب : وهو عبارة عن نقرة يليها سكون وهو جزء من النبضة ولنقل نصف النبضة لانها كما سبق أن قلنا : سكونان وحركة .

والوتد : وهو سكون بعد نقرتين

والفاصلة : وهو سكون بعد ثلاث نقرات اي أن لدينا هنا وحدة للغناء مؤلفة من اربعة عناصر . تماماً كالنبضة الواحدة .

فاذا انسجم النغم والغناء وابقاعهما مع النبض غيراً بالتالي دورة الدم ، ومعنى هذا ان كل الوظائف ايضاً تغيرت لان كل استقلالاتها متعلقة بالدم من حيث سرعته ، وكمية الاوكسجين فيه الى آخره . وبالتالي فان الحال النفساني ايضاً يتغير ، ويعود هذا فيؤثر في الفيزيولوجيا وتؤثر هذه في النفس وهكذا تباعاً حتى يصبح الانسان جميعاً طوع النغم واللحن .

وحتى الانباض المرضية ذات علاقة بالموسيقى والالحن .

والواقع أن النبض كما يقول الانطاكي «هو حركة مكانية من أوعية الروح مؤلفة من انقباض وانبساط للتدبير بالنسيم» .

اذ كان القدماء يعتقدون ان غاية النبض ترويح الدم بالهواء عبر الجلد . وان هذه الحركة مثل حركة الدم أي « على حد مد المياه وجزرها الحاصلين من قبل الاشعة » اذ إن فكرة دوران الدم لم تكن موجودة في ذلك الزمان .

واختلف القدماء فمنهم من قال إن حركة الشرايين مستقلة عن القلب كأهل التجربة وهي احدى المدارس اليونانية . واتفق معظمهم انها جزء من حركة القلب . وان حركته مؤلفة من انقباض وانبساط ، وان حركة الشرايين هي ارتفاع وانخفاض .

وقال ابن سينا « ان كل نبضة مؤلفة من حركتين وسكونين . لان كل نبض مركب من : انبساط وانقباض ، ولا بد من تداخل السكون بين كل حركتين متضادتين » ويقول ايضاً : « اربعة أجزاء : حركتان ، وسكونان . حركة انقباض وسكون بينه وبين الانقباض . وحركة انقباض وسكون بينه وبين الانبساط » .

أي أن كل نبضة مؤلفة من .

سكون — انبساط — سكون — انقباض ويؤكد ابن سينا ان ادراك زمن الانقباض قصير جداً حتى انه من الصعب ادراكه .

اما تصنيف هذه الانباض فهو تابع للنظرية البقراطية وهي كما هو معلوم تقول إن ثمة اربعة عناصر وأربعة أمزجة وأربعة أخلاط :

عناصر : نار أرض هواء ماء
أخلاط : دم سوداء صفراء بلغم
أمزجة : حار يابس رطب بارد





طبيب (ولعله ابن سينا) يجس نبض مريض لاستكشاف سبب مرضه

فبالنسبة للنغم والايقاع نستطيع القول
انهما يكونان كما يلي :

حركة - سكون
استواء - اختلاف

قلم طبيعي - غير طبيعي أو بلا نظم اطلاقا
ثقل - خفة •

وهذا تصنيف الانباض الايقاعية البسيطة •
وهي كما نرى تسعة أيضا حسب النظرية
البقرائية •

فاذا طرحنا النبض الذي لانظم له وجدنا
أن الايقاع على أربعة أنواع ، لكل نوع شكلان
شديد وضعيف •

والواقع ان الالحان العريضة تخضع هي
أيضا الى أربعة اجناس :
الاول : المسمى العمود الاول أو الخفيف
المطلق وهو متألف من نقرة يعقبها ويسبقها سكون ،
وكلها متساوية •

والواقع ان هذا الايقاع هو ايقاع النبض
المتواتر أو الخفيف •

الثاني : العمود الثاني أو الخفيف الثاني :
وهو نقرة يتبعها سكون ، وفي النبض يقابله
المتفاوت أو المختلف •

والثالث : الثقيل الاول : مؤلف من نقرة
وسكونين تالين ويقابله النبض الثقيل •

والرابع : الثقيل الثاني : وهو مؤلف من
نقرة وثلاثة ازمة سكونية ويقابله في النبض ذو
النظم غير الطبيعي • ولنقل انه نوع من انواع
النبض البطيء •

فاذا مازجت بعضها ببعض حصلنا على
تسعة نماذج مركبة هي :

سوداء - جاف - بلغم - رطب - حار - دم
سوداء - بارد - رطب - صفراء - دم - جاف
بارد - بلغم - صفراء - حار - ثم : المعتدل
وهكذا فبالنسبة للانباض لدينا تسعة
انباض وهي :

الطويل	المعتدل	القصير
العريض	المعتدل	الضيق
المنخفض	المعتدل	المشرف

وهي أنباض بسيطة •

وتوجد أخرى مركبة هي :

الزائد : طولاً وعرضاً وعمقاً وهو : النبض
العظيم •

والناقص : طولاً وعرضاً وعمقاً وهو :
النبض الصغير وبينهما المعتدل

والزائد : عرضاً ، وشهوقاً وهو : النبض
الغليظ

والناقص : عرضاً ، وشهوقاً وهو : النبض
الدقيق وبينهما المعتدل

المستوى : وهو الذي تساوت أجزاؤه

والمختلف : وهو الذي اختلفت اجزائه
وبينهما المعتدل •

الا ان هذه التصنيفات لاتهمنا في بحثنا لانها
لا تتعلق بالنغم والايقاع بل العرض والطول
والشهوق •



ولدينا أيضا انباض مركبة وهي أيضا تسعة :

- ١ - المسلي : وشبهه بالمسلة وهي آلة الخياطة لان بدايته ضعيف ثم يقوى ثم يضعف .
- ٢ - المائل : وهو عكسه
- ٣ - الموجي : وهو المختلف في الاجزاء تدريجيا ، ويظهر اختلافه عرضا خشبة بالامواج .
- ٤ - الدودي : وهو موجي ضعيف
- ٥ - النملي : سمي بذلك لدقته وضعف حركته .

- ٦ - المنشاري : وهو ما اختلفت أجزاءه تواترا وسرعة وصلابة
- ٧ - المرتعد : ويدل على الرعدة
- ٨ - المتشنج .

والتاسع : هو كالعادة : المعتدل فيما بينها رغم ان هذا لا معنى له .

● تبقى الانباض التي ليس لها نظام فمنها :

- الغزالي : فهو كالغزال يطفو على الارض ويسكن في الجو ثم ينزل مسرعا . ويدل ، كما يقول الضرير : على ضعف القلب واختلال حركاته
- ذو الفترة : وهو الساكن حيث تطلب الحركة .

- الواقع في الوسط : وهو عكس السابق
- المطرقي : سمي بذلك لسرعة ارتفاعه وهبوطه كالطرقة

- ذنب الفأر : وهو نبض يدق تدريجيا الى حد ثم يعود فيغلظ من حيث دق ويتدرج رجوعا .

ويستمر الانطاكي في الوصف والتصنيف الى أن يقول : « فهذه مائتان وستة عشر (نبضا)

فاذا ضربتها في اقسام الحركة بلغت ستماية وثمانية واربعين ، وهكذا المجموع في باقي الاجناس » .

والواقع ان هذه الارقام من الناحية الطبية السريرية لا حقيقة لها . ولكنها من الناحية الموسيقية النظرية قد يكون لها ضرب في الصحة .

من كل ما تقدم نستطيع القول بأن الموسيقى العربية موسيقى مبنية على ايقاع الجسم الانساني وفيزيولوجية . وهذا ما يجعلها اكثر فاعلية وتأثيرا .

فان المستمع الشرقي بالعادة والخبرة والتجربة يستطيع أن يجعل ايقاع جسمه كله ابتداء من القلب والنبض والتنفس حتى اعماق الاستقلابات ، منسجما مع ايقاعها الموسيقي والالحان والغناء العربية . من هنا نجد المستمع العربي يدخل في حالة اكثر من « النشوة » العادية أو الطرب ، انها حالة (السلطنة) . ولنذكر ان بعض الطرق الصوفية تعتمد الى الموسيقى حتى يصل المرء الى حالة « الحال » فيستطيع الى حد ما التمكن من أحاسيس جسده فيبطل منها ما يريد ويزيد في غيرها فيقوم بما يبدو كالمعجزات .

وكثيرا ما ترد في الكتب العربية القديمة أثناء الحفلات الموسيقية أن أحد الحاضرين أخذ

* - يدخل البعض الآخر حركات التنفس في الموضوع . ولكن عيبها انه بإمكان الارادة التحكم بها ، اما النبض فلا .

* * - ومنها التعبير الشعبي : اخذه الحال .

* * * - منها كتاب ابي حيان التوحيدي : « الامتاع والمؤانسة » - القسم الاول - ص : ٢٤١ طبعة وزارة الثقافة بدمشق - ١٩٧٨

بيكي ، ويمزق ثيابه ، التراب على رأسه ،
ويقوم بأفعال غير طبيعية •

وما ذكرناه يؤكد القصة التي تروى عن
الفارابي والتي قد تبدو بادية الامر ضربا من
المبالغة ، أو حتى الخرافة • وفجواها ان المعلم
الثاني دخل على بلاط سيف الدولة • فأخرج
آلة موسيقية ف ضرب على عيدانها فضحك كل من
كان في المجلس ، ثم ضرب عليها مرة اخرى فبكوا ،
ومرة ثالثة فناموا فتركهم ومضى •

ولقد استفاد العرب من هذه النظريات ،
ومن هذه الدراسات ، فطبّقوها في مجال التطبيق
النفساني •

فقد اعترف العالم للعرب بأنهم أول من
اعتنى بالمصابين بالامراض العقلية • على حين ظل
المداءون في أوروبا يضربون بالسياط ، ويربطون
بالسلاسل الحديدية ، ويلقون في الاقبية والمغارات
ولم تتحسن احوالهم حتى زمان الطبيب فيليب
بينل (١٧٤٥ - ١٨٢٦ م) الذي حرر المجانين ،
وفك اسارهم • وذلك في القرن الثامن عشر •

وعندما كنت طالبا في جامعة باريس أرتاد
مستشفى السالبتيرير ، كان في صدر قاعة
المحاضرات لوحة ضخمة جدا تمثل المجانين راقدين
في السلاسل والطبيب بينل يحررهم واحدى
المريضات جاثية على قدميها تقبل يديه اعترافا
بالجميل •

لقد تميز الطب العربي بانسانيته فهو اول
من اعتنى بالمجانين ، وظهر اليهم ظره الى المرضى ،
لا الى أناس قد تقمصتهم الشياطين والابالسة •
بل قد بنيت لهم مشافٍ خاصة للاعتناء بهم

من قبل اطباء تميزوا بالخبرة والعلم والرحمة •
ومن جملة المعالجات كانت المعالجة
بالموسيقى •

وبالطبع فان الامر بالنسبة للاوروبي يبدو
غريبا : فكيف يعالج مجنون بموسيقى عقلانية •
كالموسيقى الاوروبية المسماة خطأ عالمية ؟ ••

والواقع ان الموسيقى العربية كما شرحنا
مختلفة تماما •

واذكر القصة التالية للمثل وليس للحصر •
وهي مذكورة في كتاب محمد بن أحمد التميمي
المقدسي « مادة البقاء » في دفع ضرر الهواء ،
والتحرز من الوباء » •

يقول : « ومن عجب ما بلغني من أفعال
النعم وحسن تأثيرها في النفوس ، ومزاوتها
لعظيم الاعمال ، ومعاونة الطباع على نفسها ،
وازالتها عن النفوس والاجساد انه كان في جوار
يعقوب بن اسحق الكندي ، رجل من كبار التجار ،
موسع عليه في تجارته ، وكان له ابن قد كفاه أمر
بيعه وشرابه ، وضبط دخله وخرجه • وقد كان
ذلك التاجر كثير الإضرار على الكندي ، والطعن
عليه ، مدنا لتكفيره والاغراء به • فعرض لابنه
سكتة فجأة ، فورد عليه من ذلك ما أذهله ،
وأقطعه ، وبقي حائرا لا يدري ما الذي له في ايدي
الناس ، ومالهم عليه ، مع ما دخله من الجزع على
ابنه ، ولم يدع بمدية السلام طبيبا الا ركب اليه ،
لينظر اليه ويشير عليه في أمره بعلاج ، فلم يجبه
كثير من الاطباء لكبر العلة وخطرها ، فلم يجد
عنده كبير غنى •



جارية تعزف على القانون



الطبيب الفرنسي فيليب سينيل يحرر المجانين من قيودهم

تفقه وبقوى نبضه وترجع اليه نفسه شيئاً بعد شيء الى ان تحرك وجلس وتكلم واولئك يضربون في تلك الطريقة دائماً لا يفترّون » .

المصادر

(١) - ابن سينا : القانون - طبعة بولاق - اوفست بغداد - ج : ٢ .

(٢) - داود الانطاكي : النزهة المبهجة في تشييد الازهان وتعديل الامزجة - مطبوع على هامش كتاب : تذكرة اولي الالباب ، والجامع للمعجب العجائب - مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده - مصر - ١٢٨٢ هـ . البحث السابع ج ٢ - ص : ١١ .

(٣) التميمي : ابو عبد الله الحكيم المقدسي ثم المصري - مادة البقاء في اصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء - مخطوطة المكتبة المارونية بحلب رقم : ٥٦١ .

فقليل له : أنت في جوار فيلسوف زمانه ، وأعلم الناس بعلاج مثل هذه العلة ، فلو قصدته لوجدت عنده ما ترغب . فدعته الضرورة الى أن يحمل على الكندي من اخوانه بمن يثقل عليه فأجابه وصار معه الى منزله فلما رأى ابنه محبته . امر بأن يحضر اليه من تلاميذه في علم الموسيقى ممن قد انعم الحذق بضرب العود ، وعرف الطرائق المحزنة والمفرحة ، والمقوية للقلوب والنفوس ، فحضر اليه منهم اربعة ، فأمرهم ان يديموا الضرب عند رأسه ، وان يأخذوا في طرائق وقفهم عليها وأراهم مواقع النغم بها من وضعهم أصابعهم على الدساتير وقلها .

فلم يزالوا يضربون في تلك الطرائق . والكندي اخذ محبة الغلام ، وهو في ذلك يمتد

